وقفة: مع المظلوم

لسنا وحدنا أيها الحبيب، نعم لسنا وحدنا من يقف وقفة مع المظلوم ليواسيه، ولسنا وحدنا من يضمّدُ جراح المظلومين، فالله تعالى بجلال قدره وعظيم سلطانه، يقف مع المظلوم، فيرفع الظلم عنه، ويستجيبُ دعوته، وينتقم له من ظالِميه، والله عزيز ذو انتقام.

وتأمل معي رحمك الله ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن وأوصاه، قال له في آخر وصيته:♂**واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**═، الله أكبر، جعل دعوة المظلوم ليس بينها وبينه حجاب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:♂**ثلاثُ دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم**═، رواه الترمذي.

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي عبر التأريخ، فما ظلم ظالم إلا لُعن وخاب، وما دعا مظلوم إلا كان دعاؤه مستجاب، وأتاه النصر من رب الأرباب.

فهذا فرعونُ، وما أدراك ما فرعون، الذي بلغ من الطغيان والجبروت والظلم ما بلغ، ظلم وتكبَّر، وطغى وتجبر، حتى بلغ ما قاله الله جل وعلا:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى} [القصص: ٣٨]، أفليس هذا ظلم وبغي؟ إي وربي ظلم وبغي وعدوان.

ولكن ما هي النتيجة، يقومُ موسى عليه السلام، فيرفَعُ يديه إلى ناصر المظلومين، إلى ربّ العالمين:{رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ

زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ} [يونس: ٨٨].

فيعقب الله ذلك بقوله:{قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾} [يونس: ٨٩].

ولنعش يا أخي لحظاتٍ مع صفوة الخلق، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان ذات يوم ساجداً عند الكعبة، وكان بقربه جماعة من كفار قريش، فيقول بعضهم لبعض، أيكم يقوم إلى سلى جزور بني فلانٍ فيلقيه على ظهر محمد؟

بأبي أنت وأمي وروحي يا رسول الله، فيقوم عقبة بن أبي مُعيط، ويأخذ السلى ويلقيه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم .

تنزّه ظهرك وجسدُك يا رسول الله، ويبقى النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً، والقصة في الصحيحين، ويبقى ساجداً حتى تأتي ابنتُه وتأخذ السلى من على ظهره وهي تبكي، ثم تُقبل على المشركين تسبّهم، فيقوم النبي صلى الله عليه وسلم قرب الكعبة ويرفع يديه ويقول:♂**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بفلان، اللهم عليك بفلان**═، ويعدّ سبعة من صناديد المشركين.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فو الله، لقد رأيتُهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى قليب بئر فألقوا فيها بعدما انتفخت جُثثهم، وأُتبع أصحابُ القليب لعنة:{أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ } [هود: ١٨].

فيا أحبابي، عندما يُحاصر المسلم من كل جهة، ويُضيّق عليه الخناق، فلا يستطيع الانتصار لنفسه ممن ظلمه، ولا يَقدر على الظلم الصارخ الذي أحاط به من كل جانب، فماذا عساه أن يفعل؟

يرفع يديه إلى السماء، فتفتح له السماء أبوابها، وتأتيه منافذ الفرج، ويتنزّل عليه المدد، إنه مدد السماء، من رب الأرباب، وخالق الأسباب، مُهلك الجبابرة، وقاصم القياصرة، وقاهر الأكاسرة، وساحق الأباطرة، الذي أهلك عاداً الأولى، وثمودًا فما أبقى، وقوم نوحٍ من قبل، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى.

إن رحمة الله تبارك وتعالى، تتجلى في هذا السلاح الفتّاك، الذي منحه الله للمظلومين، بل إن الظلمة مهما بلغوا من الطغيان، أفراداً كانوا أو جماعات، قد يسقطون بسبب الدعاء،{ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ } [إبراهيم: ٤٢].

فوا عجباً، ويا لله رب العالمين، يَظن الظالم أن الله غافلٌ عنه، يظن أن الله لا يعلم عنه، أم يظنّ الظالمُ أن الله عاجزٌ عنه، لا يقدر عليه، كلاّ ثم كلا، وحاش لله، إن الله يُمهل ولا يهمل، يمهل الظالم لكن لا يهمله.

سبحانه عزّ وجل وتقدس يصبر على الظلمة، ولكن إذا أخذهم لم يفلتهم، قال تعالى:{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ } [النحل: ٦١].

فيا أيها الظالم، اتق دعوة المظلوم، لا تعرّض نفسك لدعائه، لأن دعوة المظلوم مستجابة، " اتق دعوة المظلوم "، واحذرها، فإنها تُحمل على الغمام، ويقول الله تعالى:♂**وعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين**═.

♂**اتق دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب**═، لأنها حتمًا ستُجاب، فكيف بالمظلوم إن كان مسلماً؟ كيف بالمظلوم إن كان

مؤمناً؟ كيف بالمظلوم إن كان تقياً صالحاً؟

بل كيف بالمظلوم إن كان أباً أو أماً، فيا ويلتاه لمَن ظلم أمه وأباه، ويا أسفاه على أولائك الذين ظَلَمُوا،{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } [الشعراء: ١١٣].

وكيف بالمظلوم إن كان أخاً أو أختاً، وكيف بها إن كانت زوجةً أو بنتاً:{سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} [النور: ١٦].

أيها الأحبة في الله، قصص المظلومين كثيرة، منهم من دعا على من ظلمه فاستجاب الله دعوته، أذكركم ببعضها تسليةً للمظلومين، وتحذيراً للظالمين، وإعلاماً لهم أن دعاء المظلوم مستجابٌ عند رب العالمين، " ولو بعد حين ".

فهذا سعدُ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه، ظُلِمَ فدعا على من ظلمه، وكان مجاب الدعوى، حتى قيل إن دعواه تنفذ إلى السماء، كما تنفذ السهام في الجسد، وتفصيل القصة: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عيّن سعد بن أبي وقاصٍ أميراً على أهل الكوفة، فاشتكوه إلى عمر، وقالوا إن فيه كذا وكذا، حتى قالوا إنه لا يحسن الصلاة، فدعاه عمر، فقال له يا سعد: إن الناس يقولون عنك كذا وكذا، حتى قالوا إنك لا تُحسن الصلاة.

فقال سعد: أما والله إني أصلي بهم كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، أطيل في الأوليين، وأخفف في الأخريين، فقال له عمر، ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، ثم أرسل عمر من يتقصى الأمر، ويتبين الحقائق، فصار أولائك النفر يقفون في أسواق الناس وفي مساجدهم ويسألونهم، ما تقولون في أميركم؟ فقالوا: لا نعلم إلا خيراً، حتى دخلوا على مسجد بني عبسٍ فسألوهم: ما تقولون في سعد؟ قالوا: لا نعلم إلا خيراً، فقام رجلٌ ظالم مُراءٍ فقال: (أما إن

سألتنا عن أميرنا سعد فإنه لا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية، ولا يعدل بالقضية)، فقام سعد بن أبي وقاص ورفع يديه وقال: (اللهم إن كان عبدُك هذا قال رياءً وسمعةً، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرّضه للفتن)، فاستجاب الله دعوة سعد، وقد كان مظلوماً من قِبل ذلك الرجل، فطال عمره حتى سقطت حاجباه على عينيه من الكِبَر، وطال فقره حتى إنه كان يمدّ يده يتكفف الناس، وتعرّض للفتن، حتى إنه كان على رغم فقره وشيخوخته وكبر سنه، كان يقف في الطرقات والأسواق، وكان ذاك الرجل يتعرض للجواري يغمزهن، فإذا قيل له في ذلك قال: شيخ كبير مفتون أصابته دعوة سعد).

إنها تقرّبات الأسحار، فالحذر الحذر أيها الأخ المبارك، ويا أيتها الأختُ الفاضلة.

فدعوة المظلوم قد تصيبك في نفسك، و قد تصيبك في مالك، وقد تصيبك في جاهك، وقد تصيبك في ولدك، في فلذة كبدك، قد تقلب صحتك سقماً، وتقلب سعادتك شقاء.

دعوة المظلوم تجعلك بعد العز ذليلاً، بعد الغني فقيراً، بعد الجاه حقيراً، بعد العلم والأدب جاهلاً شريراً، والله على كل شيء قدير.

ولا زلنا مع قصص المظلومين، فها هي يا أحبتي في الله قصة أخرى، لامرأةٍ يقال لها أروى بنت أويس، شكت الصحابيّ الجليل سعيد بن زيد رضي الله عنه إلى مروان بن عبد الحكم، وقالت إنه أخذ شيئاً من أرضها، فقال سعيد: أنا آخذ شيئاً من أرضها بعد ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك.

فقال له مروان: وماذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول؟ قال: سمعته صلى الله عليه وسلم يقول:ﷺ **من اقتطع شبراً من أرضٍ طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين**ـــ، رواه مسلم.

فقال مروان بن الحكم: لا أسألك بعد هذا بيّنة، يكفيني قولك هذا، ثم قام سعيد بن زيد ودعا على هذه المرأة وقال: (اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واجعل ميتتها في هذه الأرض).

قال راوي الحديث عُروة بن الزبير: فو الله لقد عُمي بصرها، حتى رأيتها امرأةً مسنةً تلتمس الجدران بيدها، وكانت في هذه الأرض بئر، وكانت تمشي في أحد الأيام فسقطت في البئر، وكان ذلك البئر قبرها، وأجاب الله دعاء سعيد بن زيد وكان مظلوماً، وما يزال الله عز وجل يتقبّل دعوات الداعين، ويستجيب استغاثة المظلومين.

وهذا غيض من فيض، بل قطرة من مُحيط، وإلا فالتأريخ مليء بانتصارات المظلومين، بفضل استجابة رب العالمين، فلعلّ الله أن ينصر المسلمين المظلومين، على أعدائهم الظالمين، إنه وليّ ذلك والقادر عليه، والله على كل شيء قدير.

ومن كل ما تقدم يا عبد الله، يُستفاد جواز الدعاء على الظالمين، وكفاك أخي المسلم، وكفاك يا أختاه، وكفانا جميعًا أن نلجأ إلى الله، وأن نفوض أمرنا إليه، فنقول لكل ظالم، حسبنا الله، وحسيبك الله، وكفى بالله حسيباً.

* * *